

الضمير الهارب

للدكتور طه حسين

بخلاصة ما ينشئ اليه التحقيق والتدقيق والتمحيص والصفية، فغذى به عقله وقلبه وشعوره؛ وفكر فيه فاطال التفكير، واستخرج منه أقصى ما يستطيع استخراجه من الذلة واللام، ومن العبرة والعظة، ومن الغبطة والحزن.

وكان صاحبي هذا يحكم هذا المزاج الخاص معقداً شديداً. متعاً لنفسه ولا يحبه واصدقاته جميعاً، وكان كثيراً ما يسأل نفسه عما يريد فلا يجد لهذا السؤال جواباً. وكان اصداقائه يسألونه عما يريد فلا يجدون لهذا السؤال جواباً. فلما استأثروا منه اختدوا بسألون أنفسهم عما يريد فلم يجدوا لهذا السؤال جواباً. فقلوبه على علانته، واحبوه على ما في صحته من مشقة وتعقيد. وكانت حياته وحياة اصحابه هتلية مستقيمة تمضي في طريق لا عوج فيها ولا تنوء، كما كانت حياة الناس كلهم في بعض اوقات الامن والهدوء والهدوء، فكان راضياً عن اصحابه، وكان اصحابه راضين عنه. وكان ما يعرض له ولهم من مصاعب الحياة ومشكلاتها لا يزيد على ان يكشفه لهم فيجبه اليهم، ويكشفهم له فيجيبهم اليه. ولكن هدوء الحياة ودعتها واضطراب الامن فيها واستقامة الطرق لسالكها ليست اموراً محنومة مقضية للناس او مقضية عليهم، قد أخذوا بها عهداً على الظروف والايام. وانما هي امور يمكن تباح حيناً وتمتنع أحياناً، تباح فيسعد الناس، وتمتنع فيشقى الناس. تباح فجعل بعض الناس بعضها، ويحب بعض الناس بعضاً، ويظلم بعض الناس الى بعض، لأن ظروف الحياة لا تتركهم على ان يدق بعضهم في امتعان بعض، ويحقق بعضهم في ابتلاء بعض. ثم تمتنع فاذا الناس يتعارفون، ولا يبلشون ان يتعارفوا حتى يتناكروا ويتداروا. ويقوم الشك منهم مقام اليقين، ويقوم الحذر منهم مقام الاطمئنان، ونقوم الفرق منهم مقام الصراحة، ويقوم البغض منهم مقام الحب، واذا هم يندمون على جهلهم القديم، واذا هم يحزنون على اطمئنانهم اماضى، واذا هم يبنون لورد الله عليهم تلك الايام الحلوة التي كانوا يستمتعون فيها بلذة الجهل وحلاوة الغفلة ونعيم الثقة، وأعفاهم من هذه الايام التي يشقون فيها بألم الممررة ومرارة الفطنة ويؤس الشك.

وكان صاحبي قد فتح لنفسه الابواب كلها على مصارعها كلها ليتلقى كل شيء من كل شيء. ومن كل انسان. ثم ليسعد بهذه الصنعة والتقية، وبهذا التمهيص والتحقيق، ويتخير الثمرات من كل ما كان يجتمع له من الجدد والردى. فلما تكررت الايام لم يفتل من ابواب نفسه باباً، وانما نظر هذا النفوس تعلق من دورته نفسها

لم يكن صاحبي ساذجاً رلاً غلبت القلب طاهره كهذا الضابط الفرنسي الذي اظنك رأيت في دار من دور السينا، ياتمر مع اصحابه ليغير النظام في فرنسا ويرد الى العرش ابن نابليون. فينا هو ذات يوم يمشي على رصيف من أرصفة باريس لقي رفيقا من رفاقه في جيش الامبراطور. وكان المهد قد بعد بينهما فوقع اللقاء من نفس الرجلين موقماً حسناً، وتحدثا عن الجيش وعن الامبراطور، وتحدثا عن أمس وعن غد، ولم يكرها أن يذما يومهما ويسرفا في ذمه. ثم ذهب الصديقان الى حيث كان الضابط يقيم ليتحدثا في حريه وأمن ودعة. وأخذ الضابط يحدث صاحبه عن اصداقائهما وما باتمرون به، ثم ما زال الحديث ينتقل بهما من موضوع الى موضوع حتى عرف الضابط أن صديقه لم يبق على عهد الامبراطور، وانما أثر لين الحياة فعمل في جيش الملك. هنالك لم يستطع الضابط أن يلوم صاحبه ولا أن يعاتبه، ولا أن يناقشه في شيء. ولم يرد على أن اطفأ المصباح حتى لا يرى وجه هذا الصديق الخائن. وفهم الرجل عن صديقه فانصرف عنه خراباً أسفاً.

لم يكن صاحبي ساذجاً غليظ القلب طاهره كهذا الضابط الفرنسي، وانما كان رجلاً مترفاً لا في حياته المادية، بل في حياته المعنوية خاصة. كان مترف العنق جداً لا يكتفى بظواهر الأشياء ولا يقنع بحقائقها، وانما يبغي شئ أرقى من الظواهر وأعمق من الحقائق كأنه اللب والخلاصة لكل شيء. وهو اذ وصل الى هذه الخلاصة وذلك اللب لم يقنع بهما وانما تخير بينهما ألقاهما وأرقاهما وأشد هما ملائمة. المتنازع، والنوق الرفيع، والشعور الراق، والنفس الآلية العالية. وكانت صاحبي هذا قوى الخس جداً، ولكنه كان شديد الازدراء للنفس، يسمعه في موضعه الطبيعي فلا يكبره ولا يغلو في العناية به، ولا ينتظر منه الا ما ينتظر من الاداة التي لا يراد منها الا ان تؤدي العمل الذي هيئت له، فهو لا يريد من حبه الا ان ينقل اليه صور الحياة الخارجية، فاذا نقلها اليه شغل بها فحتى ودقق، وعص وصنى، وآثر نفسه

ففسا ، وإذا أبوابها تغلق من دونه بابا قبابا . وإذا ما كان يجتمع له من الملاحظات يقل شيئا فشيئا ، ويندر حتى كاد لا يصبح شيئا . وإذا ما بقي له من هذه النفوس القليلة التي ثبتت لتجن ، وامتنعت على الخطوب ، وأبت أن تلين قاتمها للآحداث ، قد أخذ ينشأ من حين إلى حين لون رقيق جدا من الحياة ، ثم من الغلو في الحياة ، ثم من الأشفاق ، ثم من الاسراف في الأشفاق ، ثم يتكاثف اللون ويتكاثف ، وتضاف طبقات منه إلى طبقات حتى يصبح احتياطا وحذرا ، وحتى يستحيل إلى حجاب كثيف صفيق لا تنفذ من دونه نفس إلى نفس ، ولا ينتهي من دونه قلب إلى قلب ، ولا يتحدث من دونه ضمير إلى ضمير ، وإذا صاحبي يلتقي أصحابه فلا يلتقي منهم إلا وجوها ، ويصافح أصحابه فلا يصافح منهم إلا أيديا ، ويحدث أصحابه فلا يكون بينه وبينهم إلا حركات الألسنة في الأفواه ، وخروج الألفاظ من الشفاة ، واتباع الأصوات إلى الأذان ، ثم وموقفها دون هذه الأبواب التي قد غلقت تغليقا ، وهذه الأستار التي قد اسدلت إسدالا ، على أنه هو أيضا لم يكن أقل من أصحابه وأحبابه تغليقا لأبواب نفسه ، والفاء للحجب والامتناع بينه وبينهم ، فقد آذاه مارأى منهم كما آذاهم مارأاه ، فكان منه هذا الحياة الذي كان منهم ، ثم أخذ هذا الحياة يتعقد في نفسه كما كان يتعقد في نفوسهم حتى أصبح اشفاقا ثم شكائهم احتياطا وحذرا . ولكن حياة صاحبي لم يكن كحياة أصدقائه ، كانوا يستحون منه وكان يستحي لهم ، كانوا يشفقون منه وكان يشفق عليهم . كان يحذرون منه وكان يحذر عليهم ، ولكنه الحياة والاشفاق والحذر على كل حال . ولكنه تغليق الأبواب والفاء الأستار والحجب على كل حال . ولكنه انقطاع الأسباب ونسداد الصلات على كل حال . ولكنها العزلة بين قوم لم يكونوا يستطيعون أن يعتزل بعضهم بعضا ، والفرقة بين قوم لم يكونوا يستطيعون أن ينعموا بالفراق ، ولكنه الرياء بين قوم لم يكونوا يحملون الرياء ، ولكنه هذا الالم الممض الذي ينشأ عن الفراق والناس يجتمعون ، وعن البعد والناس متقاربون ، وعن القطيعة والناس متواصلون . ولكنه العذاب الذي يجده الناس حين يتحدثون بالسقيم لا بقلوبهم ، وحين يسمعون بأذنانهم لا بنفوسهم ، وحين تصافح أيديهم وتتباعد بين ضمائرهم ونياتهم الآماد ، إلا من ألف منهم هذه الحياة واطمأن إليها ووجد فيها مثل ما كان يجد في تلك الحياة من اللذة والراحة والهدوء لأنه فارق أصدقاء فوجد مكانهم أصدقاء آخرين ، ونأى عن أحياء فاستقر في أحياء آخرين .

هنالك نظر صاحبي إلى نفسه ، فإذا هو قد أصبح أداة من الأدوات تسعى مع النهار وتعود مع الليل ، تلقي الناس فتحدث إليهم وتسمع منهم دون أن تعقل ما يصدر عنها أو تدرك ما يصدر إليها من حديث . أداة تذهب وتجي . تتلقى آثار من أدوات مثلها ، وتحدث آثارا في أدوات مثلها ، ولكنها آثار ظاهرة آلية لا قوام لها ولا لذة فيها ولا أثر للحياة القوية العاقلة المفكرة في مظاهرها ، إنما هي أداة مثلة لا أكثر ولا أقل . تعمل مع أدوات مثلة لا أكثر ولا أقل . وكانت لصاحبي بقية من قوة في النفس ، وفضل من حياة في الضمير ، وأثر من حزم في الإرادة ، وقليل من ذلك الترف العقلي الذي كان يستمتع به أيام كان الناس ناسا ، وحين كانت الحياة حياة ، فأكبر ما انتهت إليه أموره وأموار أصحابه من هذه الصفة التي يحدد فيها الرجل نفسه ولا يؤمن فيها إلا بغيره . أكبر ذلك وضاق به وأزعج أن يعتزل هذه البيئة التي لا يستطيع أن يكون فيها إلا أداة مسخرة . ولكنه اعتزلها ولم يعتزلها ، قر في داره وعاش بين أهله ، لم يسع إلى أحده ولم يفكر في لقاء أحد ، وكان يظن أن هذه العزلة ستغنيه وتحميه وترد إليه نفسه بريئة من النفاق معصومة من الفساد . ولكنه لم يلبث أن استيقن أنه لم يصنع شيئا . فهو يعتزل الناس ولكن الناس لا يعتزلونه ، يعرض عنهم فيقولون عليه ، يقعد عنهم فيسعون إليه ، يكف عنهم حياته لم واشفاقه عليهم فيحملون إليه حياتهم منه ، واشفاقهم منه ، ويقولون في ذلك يحسبون أنهم يخدعونهم عن أنفسهم ، أو يحسبون أنهم يخدعون أنفسهم عن أنفسهم . فلما استيقن صاحبي من نفع هذه العزلة ، واستيقن أنه لا أمل له في أن يظفر بنفسه صافية وقلبه طاهرا ، وضميره حيا ، إلا إن ترك البيئة كلها وهاجر من أرض إلى أرض ، وارتحل عن وطن إلى وطن ، أسر ذلك في نفسه وأظهر لنا معشر أصدقائه المخادعين له ولا نفسنا مثل ما كان يظهر من حسن اللقاء ولطف المؤانسة حين كنا نزوره ونجلس إليه . ثم سميت إليه ذات يوم لاقضي معه ساعة من ساعات الفراغ ، وما أكثر ساعات الفراغ في حياتنا نحن المصريين فلم أجده ، وسألت أين يمكن أن يكون فلم أدال عليه . وسألت متى يمكن أن يعود فلم أنبأ بشيء . فعدت محزونا لا لأفلم أفلم ، بل لأنني لم ألتق عليه فقل ما كنت أحتمل من الضجر والضيق والفراغ ، ولأنني لم ألتق في نفسه أني أؤثره بالحجب ، واعتقد أنه يؤثرني به . لأنني لم أهد إليه شيئا من هذا الرياء الذي يهديه بعضنا إلى بعض في كل يوم ، ولم ألتق منه شيئا من هذا الرياء الذي